معاني
الصَّلاة الإبراهيميّة

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(الصلاة على النبي ﷺ)

من الصفحة ١٦٤ حتى الصفحة ٢١١

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام
- المؤلفات المكتوبة
وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين
سراج الدين

الكلام على معاني الصلاة الإبراهيمية

ذكرنا في الوجه الثالث من الكلام على قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله وملائكتَه يصلُّون على النبي ﴾ الآية الكريمة ، ذكرنا هناك جملةً من روايات صيغة الصلاة الإبراهيمية ، فلابدَّ إذاً من الكلام على بعض معانيها ، حتى يتعلَّم الجاهلُ ، ويتذكَّر الغافل ، وتكمل الفائدة ، وذلك أنها مطلوبة في الصلوات لله رب العالمين ، فينبغي للمصلي أن يتفهَّم معانيَ الأقوال المشروعة في الصلاة ، كما يلاحظ أسرار أفعالِ الصلاة ومقاصدِها ، وسوف نذكر بعض معاني الإبراهيمية مجملة خوف الملل من التفصيل .

والكلام على الصلاة الإبراهيمية سوف يكون إن شاء الله تعالى مرتَّباً مشروحاً كلمةً منها بعد كلمة ، وذلك لتتضح المعاني مع انسجام المباني ، فنقول وبالله تعالى التوفيق :

الوجه الأول : في الكلام على : « اللهم » :

إن معنى « اللهم » : يا الله ، فالميم في آخر الاسم عوض عن « يا » في أوله ، وهذا من خصائص الاسم الجليل وهو « الله » ، كما اختصَّ الاسم الجليل بقطع الهمزة عند النداء ، فتقول : يا ألله ، بقطع الهمزة ، واختص أيضاً بوجوب تفخيم لامه ، وبدخول النداء عليه مع التعريف ، وهناك عدة خصائص لهذا الاسم الجليل ، مذكورة في مراجعها .

وهـذا القول وهو أن « الميم » من « اللهم » عوض عن يـاء النـداء: هو قول سيبويه والخليل وغيرهما من علماء اللغة .

وذهب الفَرَّاء ومَن تَبِعه من الكوفيين إلى أن أصل « اللهم » : « يا أَلله أُمَّنا بخير » أي : اقصُدْنـا بخير ؛ فحـذف حرف النـداء تخفيفـاً ، ثم حـذف الجار والمجرور وهو « بخير » ، ثم حذف المفعول به وهو « نـا » من « أمَّنـا» فبقي « أُمَّ» فصار التقدير : يـاأَلله أُمَّ ، ثم حـذفت الهمزة من « أُمَّ » لكثرة استعمال هذا الاسم في الدعاء فبقي « اللهم » .

وقال بعض العلمـاء : إن الميم هي كالواو الـدالـة على الجمع ، فـالـداعي حين يـدعو بقـولـه : « اللهم » ، كأنـه يقـول : يـامَن اجتمعتْ لـه الأسماء الحسنى كلُّها ؛ وذلك لأن الواو كالميم فإنها حرف شفهي ، يجمع النـاطق بـه شفتيه ، فوضعتْه العرب علامةً على الجمع ، فقـالوا في جمع ضمير المخـاطب : أنتم ، وجمع الغائب : هم . ونحو ذلك[1] .

ولما كان قول « اللهم » من باب النـداء ، وهو نوع من أنواع الطلب ، فلا يقـال : اللهم غفور رحيم ، وإنمـا يقـال : اللهم اغفر لي وارحمني ، ولا يدخله حرف النداء إلا نادراً ، كما قال في الخلاصة :

والأكثر اللهم بـــالتعـــويض وشـــذَّ « يـــااللهم » في قريض

أي في الشعر ، ومن ذلك قولُ أميةَ بن أبي الصَّلْت :

إنْ تغفر اللهمَّ تغفرْ جمّـــــا وأيُّ عبـــدٍ لـــك لاألَمَّـــا
إني إذا مـــا حَـــدَثٌ أَلَمَّـــا أقـول : يـــااللهم يـــااللهما

(١) انظر ذلك في (الفتح) و (جلاء الأفهام) و (تفسير الآلوسي) وغيرها .

والدعاء بهذا الاسم « اللهم » هو دعاء بجمعٍ من الأسماء الإلهية ، قال النضر بن شُميل : من قال « اللهم » فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه سبحانه .

وقال الحسن البصري رضي الله عنه : « اللهم » مجمع الدعاء . أي : بالأسماء .

وقال أبو رجاء العُطاردي : إن الميم في قوله « اللهم » فيها تسعةٌ وتسعون إسماً من أسماء الله تعالى . اهـ . ولذلك قال بعض العلماء والعرفاء : إنه الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى .

الوجه الثاني : في الكلام على معنى : « صَلِّ على محمد » :

تقدم معنا أن معنى صلاة الله تعالى كما قال أبو العالية : هو ثناؤه وتعظيمه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار .

نعم إن الصلاة من الله تعالى تشتمل على الثناء والتعظيم والرحمة والعطف والتفضُّل ، فجميع ذلك داخل ومضمون في الصلاة منه سبحانه ، وهي ـ أي : صلاته سبحانه ـ تكون على حسب المصلَّى عليه ورتبته عند الله تعالى ، وحبِّه وقُرْبه .

ولما كان سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم أحبَّ إلى الله تعالى من كل حبيب ، وأقربَ إليه من كل مقرَّب ومتقرِّب ، وهو أكرمُ الأولين والآخرين على رب العالمين ، الذي خصَّه الله تعالى بمقام لا يشاركه فيه

غيره ألا وهو مقام الوسيلة ، الذي لا ينبغي أن يكون إلا لعبد واحد ، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي هو فرد في مقامه .

لذلك كانت صلاةُ الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم خاصةً به ، لائقةً بمقامه العالي على كل المقامات ، فمها تصوَّرها المتصوِّرون وقدَّرها المقدِّرون لا يدركون كُنْهَهَا ، ولا يحيطون بوصفها ونورها .

وأما صلاة الله تعالى على المؤمنين أتباعِ هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فإنما هي على حسب إيمانهم ، وقد نالوها بسبب اتِّباعهم لهذا السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وفضلُ التابع على قدر تَبَعيَّته لإمامه .

أخرج عبدُ بنُ حُميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ الآية ، قال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول لله ماأنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه ، فنزلت : ﴿ هو الذي يصلِّي عليكم وملائكته ﴾ .

فهو سبحانه يصلي على حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم صلاةً تليق بمقام نبوته ، ومنصب رسالته ، ومنزلة وسيلته وفضيلته الخاصة به .

وهو سبحانه يصلِّي على الذين آمنوا به صلى الله عليه وسلم واتَّبعوه ، تكرمة لهم بسبب اتباعهم ، ويُكْرَم التابع لكرامة متبوعه ، ويَشْرُف التابع بشرف متبوعه .

وإن أعظمَ الأسباب التي تضاعف الصلوات من الله تعالى على أتباع النبي صلى الله عليه وسلم : هي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن

صلَّى على النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة صلى الله تعالى عليه بها عشر صلوات . أي : ومن صلى على النبي صلى الله عليه وسلم عشر صلوات نال مائة صلاة من الله تعالى وهكذا دواليك في المضاعفات التي لم تأتِ إلا في مقابل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن أسباب صلاة الله تعالى على أتباع النبي صلى الله عليه وسلم :

ما رواه أبو داود وغيره عن البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول » ، وهو في مسند أحمد : « إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدَّم ، والمؤذنُ يُغفرُ له مَدَّ صوته ، ويصدِّقه مَن سمعه مِن رطب ويابس ، وله مثلُ أجرِ مَنْ صلَّى معه » .

ومن ذلك : ما رواه الطبراني والضياء عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله وملائكته حتى النملةَ في جُحْرها ، وحتى الحوتَ في البحر : ليصلُّون على معلِّم الناس الخير » .

ومن ذلك : ما رواه أبو داود عن البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وملائكته يُصلُّون على الذين يَصِلُون الصفَّ الأول ، وما مِن خطوة أحبُّ إلى الله من خطوة يمشيها يَصِلُ بها صفاً » .

ومن ذلك : ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وملائكته يصلُّون على ميامنِ الصفوف » .

ومن ذلك : ما رواه ابن حبان وغيره ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله وملائكته يصلُّون على المتسحِّرين».

الوجه الثالث : في الكلام على : « اللهم صل على محمد » :

تقدَّم الدليل على ندب تقديم السيادة بين يدي اسمه الشريف صلى الله عليه وسلم[1] .

وأما معنى اسمه الشريف محمد صلى الله عليه وسلم :

قال العلماء : إن هذا الاسم الشريف ـ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ـ هو أشهرُ أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء في القرآن الكريم في مواضع عديدة : قال تعالى : ﴿ محمدٌ رسولُ الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيين ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ ﴾ .

وهذا الاسم الشريف هو علم منقولٌ من الصفة ، ومعناه : أنه هو الذي يُحْمد حمداً بعد حمدٍ ، إلى ما لا نهاية له ، فلا يقفُ حمده على حَدٍّ ، فهذا الاسم الكريم يدلُّ على كثرة الحمد والحامدين له ، ويدل على كثرة موجِبات الحمد التي هي فيه ، وذلك لأنه على وزن ـ مُفَعَّل ـ بتشديد العين وهي صيغة موضوعة للتكثير والمضاعفة ، يقال : معظَّم ومبجَّل ومكرَّم وممدَّح ، لمن كَثُر وتكرر تعظيمه وتبجيله وتكريمه ومدحه مرة بعد أخرى ، وقد سُمِّي سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم الكريم ، لأنه صلى الله عليه وسلم محمودٌ حمداً بعد حمدٍ ، على وجه ثابت متكرر دائم لا ينقطع : محمد عند الله تعالى ، وعند الملائكة ، ومحمد عند إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، ومحمد عند أهل السموات وأهل العرش ، ومحمد عند أهل

(١) ص ٣٩ .

الأرض والفرش ، حتى عند أعدائه الذين كفروا برسالته ، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وبيان ذلك : أن الحمد ـ الذي هو معناه الثناء على مختلفِ أنواعه ـ يرجع إلى سببين عظيمين **أحدهما : الحسن والكمال ، ثانيهما : الفضل والنوال .**

فيُحمد الذي اتَّصف بالمحاسن والكمالات على حسب محاسنه وكمالاته ، ويُحمد صاحب الفضل والخير والنوال ـ أي : الإحسان إلى العباد ـ على حسب إحسانه ونواله .

فإذا عرفتَ ذلك فليس هناك مخلوقٌ أجمعُ للمحاسن والكمالات ، ولا أعظم فضلاً وبِرّاً ونوالاً وخيراً إلى عباد الله تعالى ، ليس هناك أجمعُ ولا أعظمُ من رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما محاسنه وصفات كمالاته : فلا يُحيط بعدِّها إلا الله تعالى الذي تفضَّل عليه وأعطاه .

فإذا مُدِح العالِم وأُثني عليه بكماله العلمي ـ ولا شك أن العلم صفة كمال ـ فإن أعلم العلماء وأعرفهم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي قال الله تعالى له : ﴿ وعلَّمك مالم تكنْ تعلمُ ، وكان فضلُ اللهِ عليك عظيماً ﴾ ، ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام أعلميَّته ، فقال متحدثاً بنعمة الله عليه : « أَمَا والله إنّي لأعلمُكم بالله ، وأشدُّكم له خشيةً » متفق عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناسُ إني قد أُوتيتُ جوامعَ الكلم وخواتِمَه ، واختُصِر ليَ الكلامُ اختصاراً » وقال : « أُعطيتُ فواتحَ الكَلِمِ وجوامعَه وخواتِمَه » رواهما أبو يعلى وغيره .

وإذا مُدِح التقيُّ بتقواه ، وأُثني عليه بصفة التقوى ، فأتقى الأتقياء هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن ذلك متحدِّثاً بنعمة ربه عليه إذ قال : « أَمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له » متفق عليه .

وإذا مُدِح الزهادُ وأُثني عليهم بزهدهم ، فأزهدُ الزهاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن ذلك بقوله : « ما أنا والدُّنْيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها » قال ذلك صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير .

وإذا مُدِح عُقلاءُ العالم بذكائهم ونبوغ عقولهم وفهمهم ، فأعقلُ العالمين وأعظمُهم نباهةً وفطانةً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما بيَّنَّا الأدلةَ على ذلك في كتاب (الشمائل الشريفة) الذي جمعناه والحمد لله فارجع إليه .

وإذا مُدِح صاحبُ الخُلُق الحسن وأُثني عليه بحسن خلقه ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي جمع محاسن الأخلاق كلها وكمالاتها كلها ، فهو أحسنُهم خُلُقاً وأجمعُهم أدباً ، قال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، فقد اعتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذِروةَ الأخلاق الفاضلة ، واستوى على قِمَّتها .

وإذا مُدح الكرماء والشجعان وأُثني عليهم بجودهم وشجاعتهم ، فأجودُ خلق الله تعالى وأشجعهم هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناسِ ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس . متفق عليه .

وإذا مُدح المتواضعون وأُثني عليهم بحسن تواضعهم ، فسيدنا محمد صلى

الله عليه وسلم إمام المتواضعين ، وقد بلغ من تواضعه أنه يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجةَ في حين أنه يمكنه صلى الله عليه وسلم أن يأمرَ بعضَ أصحابه بأن يقضي لهما الحاجة .

ولقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : إن رجلاً نادى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، كلُّ ذلك يردُّ عليه : « لبيك لبيك » .

وقال مجاهد : إنْ كان الرجل ـ أي : إنه كان الرجل ـ من العوالي يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم شطرَ الليل على خبز الشعير فيجيبُه . كذا في (زوائد المسانيد) وغيره .

وإذا مُدح الرُّحَماء وأُثني عليهم برحمتهم ، فأرحمُ عباد الله تعالى بخلق الله تعالى هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فهو صلى الله عليه وسلم رحمةٌ عامة لكل العالمين : رحمةٌ للمؤمنين ، ورحمة للكافرين ، ورحمة للمنافقين ، ورحمة لجميع بني الإنسان : الرجال والنساء والصبيان ، ورحمة للطير والحيوان ، وقد فصلنا ذلك في كتاب (الشمائل المحمدية) وذكرنا فيه الأدلة على ذلك فارجع إليه .

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني لم أُبعثْ لَعَّاناً إنما بُعثتُ رحمةً » .

وعند البيهقي والطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أنا رحمة مهداة » . وعند الطبراني : « بعثتُ رحمةً مهداةً » ، أي : مهداةً للعالم كله صلى الله عليه وسلم .

وإذا مُدح أهلُ العدل والإنصاف بعدلهم وإنصافهم ، فإمام أهل العدل والإنصاف هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وليعتبرِ العاقل في عدله العظيم وحكمه القويم إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « والذي نفس محمد بيده لو أنَّ فاطمة بنت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرقتْ لقطعتُ يَدَها » .

بل كان صلى الله عليه وسلم معلوماً لدى قومه وغيرهم بعدالته وأمانته قبل البعثة ، ولذا كانوا يتحاكمون إليه ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : كان يُتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الإسلام .

ولما اختلفوا في رفع الحجر الأسود ، وكان كلٌّ منهم حريصاً على أن ينال ذلك الشرفَ ، فرفعوا الأمر إليه صلى الله عليه وسلم ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يوضع الحجر في ثوبٍ ، وأمر من كل قبيلةٍ واحداً أن يرفعه ، فرفعوه جميعاً وأنصفهم جميعاً ، وجمع كلمتهم وشَمْلهم . صلى الله عليه وسلم .

وإذا مدح الصادقون الأمناء بصدقهم وأمانتهم ، فإمام الصادقين والأمناء هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عُرِف بذلك حتى عند أعدائه ، فكانوا يشهدون له بذلك .

قال المِسْوَر بن مَخْرَمَة : قلت لأبي جهل ـ وكان خاله ـ : ياخالي هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته ـ أي قبل أن يُنبّأ ـ ؟ .

فقال ـ أبو جهل ـ : والله يا ابن أختي لقد كان محمد وهو شابٌّ يُدعَى

فينا « الصادق الأمين » فلما وَخَطه الشيبُ لم يكن ليكذب . أي : ما كذب محمد صلى الله عليه وسلم في صباه وشبابه ، فكيف يكذب بعد ما بلغ الأربعين من العمر ؟ بل هو من أولى وأحقّ أنه لا يمكن أن يكذب ، بل هو صادق أمين فيما يقوله من أنه نبي حقاً .

قال المسور : قلت : ياخالي فلم لاتتَّبعونه ؟ ! . يعني : مادمتم تشهدون وتعترفون بصدقه وأمانته ، وأنه لا يمكن أن يكذب في دعوى النبوة ، بل هو صادق في ذلك ، إذاً ما يمنعكم من اتِّباعه ؟ .

فقال ـ أبو جهل ـ : تنازعُنا نحن وبنو هاشمٍ الشرفَ ، فأطعموا وأطعمنا ، وسَقَوْا وسَقَيْنا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثَيْنا على الرُّكب ، وكنا ـ أي في المفاخر سواء ـ كفرَسَيْ رِهان ، قالوا ـ أي بنو هاشم قالوا مفتخرين علينا ـ : منّا نبيٌّ ـ أي : نفخَر به عليكم ، ونفضُل به عليكم ، وبه نَشْرُف عليكم ـ فمن أين نُدرك هذا ؟ .

أي : من أين نأتي بنبي حتى نتساوى معهم في المفاخر والشرف ، أي : فحَمَله جهلُه على أن يجحد نبوةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم من قلبه صِدقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجحد بعد علمه بصدق نبوّته ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ فإنهم لا يُكَذِّبونك ، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ـ والمعنى : أنهم لا يعتقدونك كاذباً ، بل يعلمون إنك صادق ، ولكن لظلمهم وعدم اعترافهم راحوا يجحدون ماجئتَهم به .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « والله إني لأمينٌ في السماء ، وأمينٌ في الأرض » رواه ابن أبي شيبة .

وإذا مدح الفصحاء بفصاحتهم ، والبُلَغاء ببلاغتهم ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ، وأحكم الحكماء ، بل قد أُوتيَ ما هو فوق الفصاحة والبلاغة ، ألا وهو جوامعُ الكَلِمِ ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « أوتيت فواتِحَ الكَلِمِ وجوامعَه وخواتِمَه » .

وإذا مُدح الرجلُ الحسنُ الصوتِ بحسن صوته ، فأحسنُ الناس صوتاً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم في العِشاء ـ أي صلاة العشاء ـ ﴿ والتين والزيتون ﴾ ، فلم أسمعْ صوتاً أحسنَ منه .

وقال جبير بن مُطعِم رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حَسَنَ النغمة .

وإذا مُدح الحسنُ الوجه وجميلُ الصورة بحسنه وجماله ، فلا أجملَ ولا أحسنَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أجمعتْ كلمةُ الصحابة رضي الله عنهم الذين شاهدوا طلعته البهية صلى الله عليه وسلم ، على أنه أحسنُ خلق الله وجهاً ، وأجملُهم صورةً ، لم يُرَ قبلَه ولا بعدَه مثلُه :

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير . متفق عليه .

وقال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أَرَ قبلَه ولا بعده مثله . كما في (المسند) وغيره .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت شيئاً أحسنَ من رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمسَ تجري في وجهه . كما في (المسند) وغيره .

وقيل للرُّبَيِّع بنت مُعَوَّذٍ : صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يابنيَّ لو رأيته صلى الله عليه وسلم لرأيت الشمسَ طالعةً . كما في (سنن الترمذي) وغيره .

وقال هندُ بن أبي هالةَ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فَخْماً مُفَخَّماً يتلألأ وجهه صلى الله عليه وسلم تلألؤ القمر ليلةَ البدر . كما في (سنن الترمذي) وغيره .

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها عنا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وجهاً ، وأنورَهم لوناً ، لم يصفه واصفٌ قط إلا شبَّه وجهه بالقمر ليلة البدر ، وكأن عرقَه في وجهه مثلُ اللؤلؤ ، وأطيبُ من المسك الأذخر صلى الله عليه وسلم . كما رواه أبو نعيم وغيره .

وقال أهل المدينة المنورة لما أقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة :

طلع البدر علينا ... من ثنيَّات الوداع
وَجَبَ الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوثُ فينا ... جئت بالأمر المطاع

فهو صلى الله عليه وسلم « محمد » ـ أي محمود الخصال والشِّيَم والمزايا والكرم ـ حمداً بعد حمد ، حمداً متوالياً متكرراً من كل حامد في الدنيا والبرزخ والآخرة .

قال تعالى : ﴿ ومِنَ الليلِ فتهجَّدْ به نافلةً لكَ عسى أن يبعثَك ربُّك مقاماً محموداً ﴾ . وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن المقام المحمود الوارد في الآية الكريمة هو قيامه بالشفاعة العامة لجميع أهل الموقف ، كما روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغَ العرقُ نصف الأُذُن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ، ثم بموسى ، ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم » وزاد في رواية : « فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذ بحَلْقه الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يَحْمَده أهل الجمع كلهم »[1] .

وروى ابن جرير ـ وأصله في المسند ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ عسى أنْ يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ سئل عنها ـ أي : عن هذه الآية ـ فقال : هي الشفاعة .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُبْعث الناسُ يوم القيامة فأكونُ أنا وأمتي على تلٍّ ، ويكسوني ربي عز وجل حُلَّةً خضراء ، ثم يُؤذن لي فأقول ماشاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود » .

فهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المحمودُ في الدنيا والمحمودُ في الآخرة ، من أهل السموات وأهل الأرض .

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الزكاة ، وقد اقتصر في هذه الرواية على ذكر بعض الرسل الذين يدور عليهم طلب الشفاعة منهم ، ولكن جاء في بقية الأحاديث ذكرهم مفصلاً : آدم ، فنوح ، فإبراهيم ، فموسى ، فعيسى ، ثم تنتهي الشفاعة إلى صاحبها الذي خصه الله تعالى بها سيدنا محمد صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وهو صلى الله عليه وسلم سيدنا « أحمد » اسم عَلَم منقولٌ من الصفة التي معناها التفضيل فمعنى « أحمد » : أي هو أحمد الحامدين لرب العالمين ، فاسمه صلى الله عليه وسلم مطابقٌ لمعناه ، فإنه لم يأت حامدٌ من الأولين والآخرين بمحامدَ لرب العالمين بمثل ما حَمِدَ به سيدنا أحمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة :

أما محامده صلى الله عليه وسلم فجاءت جامعةً لجميع المحامد التي يتقاصر عنها كل حامد ، ونحن نذكر لك بعض صيغِ تلك المحامدِ التي حَمِد بها ربَّه تعالى :

روى الترمذي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، ملءَ السمواتِ وملءَ الأرض ، وملء ما بينهما ، وملءَ ماشئتَ من شيء بعدُ » .

وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : « اللهم ربنا لك الحمد ، ملءَ السمواتِ ، وملءَ الأرض ، وملء ماشئت من شيء بعدُ ، أهلُ الثناء والمجدِ ، أحقُّ ماقال العبد ـ وكلُّنا لك عبدٌ ـ : اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لِما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجد » .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « وملءَ ماشئتَ من شيء بعدُ » يشمل ما وراء السموات من عالم السِّدرة والجنة والكرسي وما حواه ، والعرش وما حواه من العوالم ، وعالم اللوح والقلم والكتاب ، ويشمل مابعد مما يشاء الله

تعالى ويخلقه ، فلم يترك سيدنا أحمد صلى الله عليه وسلم موضعَ ذرةٍ من السموات ولا في الأرض ، ولا ما بينهما ولا ما وراءهما من العوالم كلِّها إلا وقد ملأها بحمد الله تعالى وحُسْن الثناء عليه سبحانه ، فهو حقاً أحمد الحامدين لرب العالمين .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل قال : « اللهم ربنا لك الحمدُ أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومَن فيهن ، ولك الحمد أنت نورُ السموات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمد أنت مَلِكُ السموات والأرض ومَن فيهن ، ولك الحمد أنت الحقُّ ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق ، والساعة حق » . الحديث .

فلقد حَمِد اللهَ تعالى حمداً يليق بقيُّوميَّته التي لا نهاية لها ، وحمده حمداً لائقاً بنوره الذي به أظهر السموات والأرض من ظلمة العدم ، وحمده حمداً لائقاً بمقام ملكه الذي شمل السمواتِ والأرضَ ومن فيهن ، وحمده حمداً يليق بوجوب وجوده وهو الحق سبحانه .

فمعنى « اللهم ربنا لك الحمد أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن » أي : لك الحمد حمداً يليق بقيوميتك التي لا يحيط علماً بها إلا أنت ، وهكذا المحامد بعد ذلك هي على هذا المنوال .

وهذا من باب الحمد لله تعالى على كمالاته الذاتية وصفاته العلية .

وهناك الحمد لله تعالى على برِّه وإحسانه ، ونواله ونعمائه التي لا تعدُّ ولا تحصى ، ولا تحدُّ ولا تُستقصى .

ومن محامده على النعم صلى الله عليه وسلم الجامعة الدائمة : ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفعتْ مائدته ـ يعني الطعام ـ قال : « الحمد لله حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه ، الحمد لله الذي كفانا وآوانا ، غيرُ مكفيٍّ ولا مكفورٍ ، ولا مودَّعٍ ولا مستغنىً عنه ربُّنا » .

فقوله : « غيرُ مكفي » إما برفع « غير » على أنه خبر « ربنا » التي في آخر الحديث ، والمعنى : ربنا غير محتاج إلى الطعام فيكفى ، وربنا لا يكفر ـ أي : لا يجحد ـ فضله ، ولا مودَّع ـ أي : غير متروك ـ من الحمد والثناء ، بل له الحمد الدائم ، ولا مستغنى عنه ، بل كُلُّنا فقراءُ إليه ، محتاجون إليه في كل شيء .

قال العلامة المناوي : وإنْ صحت الرواية بنصب « غير » فهو صفة « حمداً » أي : حمداً غير مكفي به ، أي : لانكتفي به ، بل نعود إليه مرة بعد مرة ، ولا نترك الحمد لك يا رب ، ولا نستغني عنه ، فيكون « ربنا » لفظها منصوب على النداء .

وقد علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتَه جوامعَ من الحمد لله تعالى ورَّغبهم بذلك :

ومن هذا : ما جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : رآني النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأنا أحرك شفتيَّ فقال لي : « بأيٍّ تُحرِّك شفتيك يا أبا أمامة ؟ » .

فقلت : أذكر الله تعالى يا رسول الله .

فقال : « ألا أُخْبرك بأكثرَ وأفضلَ من ذكرك بالليل والنهار » ؟

قلت : بلى يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وسلم : « تقول :

سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله ملءَ ما خلق ، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء ، سبحان الله ملءَ ما في الأرض والسماء ، سبحان الله عددَ ما أحصى كتابه ، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كل شيء ، سبحان الله ملء كلِّ شيء .

الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما في الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد كل شيء والحمد لله ملء كلِّ شيء »[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن قال : الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه ، على كل حال ، حمداً يوافي نعمَه ، ويكافئ مزيدَه ـ ثلاث مرات فتقول الحفظة ـ أي : الكرام الكاتبون ـ : ربنا لانُحسن كُنْهَ ماقَدَّسَك عبدك هذا وحَمِدك ، وما ندري كيف نكتبه ! ، فيوحي الله إليهم : أن اكتبوه كما قال عبدي »[2] .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنهما أن أعرابياً قال للنبي صلى الله

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وابن أبي الدنيا ـ واللفظ له ـ والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما باختصار ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ورواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن ا هـ .

(٢) قال المنذري في (الترغيب) : رواه البخاري في الضعفاء .

عليه وسلم : علِّمني دعاء لعل الله أن ينفعني بـه ، فقـال صلى الله عليـه وسلم : « قل : اللهم لك الحمدُ كلُّه ، وإليك يرجع الأمرُ كلُّه » . رواه البيهقي .

فسيـدنـا رسول الله صلى الله عليـه وسلم هـو أحمـد الحـامـدين لله رب العالمين ، في جميع العوالم :

في الدنيا كما تقدم في الأحاديث ، وهو أحمد الحـامـدين في الآخرة ، كما ثبت ذلك في أحاديث الشفاعة وغيرها .

ومن ذلك : ما رواه ابن حبان في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنـه أن النبي صلى الله عليـه وسلم قـال ـ وذكر الحـديث بطـولـه ـ وفيـه : « فيتجلَّى له الربُّ تبارك وتعالى ، ولا يتجلى لشيء قبلـه فيخرُّ لله تعـالى ساجداً ، ويحمده بمحامد لم يحمدْه بها أحد ممن كان قبله ، ولن يَحْمَـده بهـا أحد ممن كان بعده ، فيقال له : يا محمدُ ارفعْ رأسَـك ، تكلَّمْ يُسمعْ ، واشفَعْ تُشَفَّعْ » . فذكر الحديث[1] .

وفي روايـة للصحيحين وغيرهمـا قـال صلى الله عليـه وسلم في حـديث الشفاعة : « فأنطلقُ فأستأذِنُ على ربي ، فيؤذَن لي ، فـأقومُ بين يـديـه ، فأحمدُه بمحامدَ لا أقدِر عليها إلا أن يُلْهِمَنيها » الحديث .

وفي رواية لهما أيضاً : « فأحمد ربي بتحميدٍ يُعَلِّمُنيه ربي » أي : يعلمه ذلك الحمدَ في ذلك العالَم .

وفي رواية للترمذي : « فأَخِرُّ ساجـداً ، فيُلهمُني الله من الثنـاء والحمـد

---

(١) كما في (ترغيب) المنذري .

ـ أي : مالا يعلمه إلا الله تعالى ـ فيقال لي : ارفعْ رأسك ، سَلْ تُعْطَ ، واشفَعْ تشفَّع ، وقل يسمع لك ، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ » .

وفي رواية لهما : « فأنطلقُ فآتي تحت العرش فأقعُ ساجداً لربي ، ثم يفتحُ الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحْه على أحد قبلي » الحديث .

فالله تعالى هو الذي يفتح على حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم في الآخرة فتحاً عظيماً ، يعلمه فيه أنواعاً من جوامع الحمد وحسن الثناء عليه سبحانه ، ويتجلَّى لجميع أهل الموقف مقامُه الأحمديُّ صلى الله عليه وسلم .

كما أن الله تعالى يُعطيه لواء الحمد ـ أي : اللواء الذي الْتَوَتْ واجتمعت فيه أنواع المحامد ـ الذي يَدخل تحته جميعُ الأنبياء : آدمُ فمن دونه .

روى الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيدُ ولد آدمَ يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواءُ الحمد[1] ولا فخر ، وما من نبيٍّ آدمَ يومئذ فَمَنْ سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أولُ مَن تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر » الحديث .

وقد وصف الله تعالى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم الحَّادون ، لكثرة حمدهم لربهم ، متَّبعين لرسولهم سيدنا أحمدَ صلى الله عليه وسلم ، جعلنا الله تعالى منهم .

---

(١) وقد تكلمنا على لواء الحمد بعض الكلام في كتابنا (الإيمان بعوالم الآخرة) .

الوجه الرابع : في الكلام على : « آل سيدنا محمد » صلى الله عليه وسلم :

اختلف العلماء في المراد بآلِ النبي صلى الله عليه وسلم الوارد ذكرهُم في الصلاة الإبراهيمية :

فذهب الجمهور : إلى أن المراد بهم : الذين حَرُمتْ عليهم الصَدقة ، واستدلوا على ذلك : بما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى بالتمر عند صرامه - أي : عند قطافه - فيجيء هذا بتمره وهذا بتمره ، حتى يصير عنده كوم من تمر ، فجعل الحسنُ والحسينُ يلعبان بذلك التمر ، فأخذ أحدهما تمرةً فجعلها في فيه ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجها من فِيه ، فقال : « أما علمتَ أن آل محمد لا يأكلون الصدقة » ؟ .

واستدلوا على ذلك أيضاً بما جاء في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطيباً فينا بماء يُدعى خُمّاً بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكَّر ووعظ ، ثم قال : « أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشرٌ يُوشك أن يأتيني رسولُ ربي عز وجل ، وإني تاركٌ فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله عز وجل فيه الهُدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستَمْسِكوا به » ، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه ، قال : « وأهلُ بيتي ، اذكروا الله في أهل بيتي ، اذكروا الله في أهل بيتي » .

فقال حصين بن سبرة : مَن أهلُ بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟

فقال زيد : إن نساءه مِن أهل بيته ، ولكنْ أهلُ بيته مَن حُرم الصدقةَ بعده .

قال : مَن هم ؟.

قال : هم آلُ علي وآلُ عقيل وآلُ جعفر وآلُ عباس .

فقال : أكلُّ هؤلاء حُرِم مِن الصدقة ؟

فقال : نعم .

إذاً هؤلاء هم آله صلى الله عليه وسلم ، لأنه جاء في الحديث كما تقدم : « إن آل محمد لا يأكلون الصدقة » وجاء أيضاً في صحيح مسلم من حديث ابن شهاب وفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم لنا : « إن هذه الصدقةَ إنما هي أوساخُ الناس ، وإنها لا تحِلُّ لمحمد ولا لآل محمد » صلى الله عليه وسلم .

فالآل الوارد ذكرهم في الصلاة الإبراهيمية المراد بهم : مَن حَرُمت الصدقة عليهم لأن الأحاديث النبوية يفسِّر بعضها بعضاً .

وذهب بعض العلماء :إلى أن المراد بآل محمد صلى الله عليه وسلم في الإبراهيمية هم أزواجه وذريته ، ذكر ذلك ابن عبد البر في (التمهيد) واستدلوا على ذلك : بما جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي حُميد الساعديّ رضي الله عنه أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ فقال : « قولوا : اللهم صلِ على محمد وعلى أزواجه وذريته ، كما صليت على إبراهيم » . الحديث المتقدم ، ووجه الحجة في ذلك أن هذه الرواية تفسِّر رواية الآل في بقية الروايات .

وذهب بعض العلماء : إلى أن المراد بالآل الوارد ذكرهم في الصلاة

الإبراهيمية : هم جميع أمة الإجابة أي أتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

قال في (جلاء الأفهام) : حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم وقال : وأقدمُ من رُوي عنه هذا القول جابر بن عبد الله ، ذكره البيهقي عنه ، ورواه عن سفيان الثوري وغيره واختاره بعض أصحاب الشافعي ، حكاه عنه أبو الطيب الطبري في تعليقه ، ورجحه الشيخ محي الدين النواوي في (شرح مسلم) واختاره الأزهري . اهـ وكذا نقله في (القول البديع) .

وحجتهم في ذلك أن آل المعظَّم المتبوع : هم أتباعه على دينه وأمره ، فإن اشتقاق لفظ « الآل » يدلُّ على ذلك ، فإنه مِن : آلَ يؤول : إذا رجع ، وإن مرجع الأتباع إلى متبوعهم لأنه إمامهم وموئلهم ، قال الله تعالى : ﴿ إلا آلَ لوطٍ نجيَّناهم بسحرٍ ﴾ والمراد بآله : أتباعه المؤمنون به من أقاربه وغيرهم .

قالوا : فإذا ورد لفظ آل محمد صلى الله عليه وسلم في الصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي سياق الدعوات يكون شاملاً أولاً للأتباع الأقربين ، ثم لِسَائر الأتباع أجمعين .

وذهب بعض العلماء : إلى أن آله صلى الله عليه وسلم الوارد ذكرهم في الإبراهيمية : هم الأتقياء من أمته صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا على ذلك بما رواه الطبراني بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن آلُ محمد ؟ فقال : « كلُّ تقيٍّ » وتلا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ﴾ ورواه البيهقي أيضاً[1] .

---

(١) والطريقان فيهما ضعف كما في (جلاء الأفهام) (والقول البديع) وغيرهما .

الوجه الخامس : في الكلام على التشبيه الوارد في الصلاة الإبراهيمية :

وفيه بحثان :

البحث الأول : في الكلام على موقع التشبيه الوارد في « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم » إلى تمامها .

قال في (فتح الباري) : اشتهر السؤال عن موقع التشبيه مع أن المقرر أن المشبه دون المشبه به ، والواقع هنا ـ في الصلاة الإبراهيمية ـ عكسه ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم وحده أفضل من آل إبراهيم ومن إبراهيم ، ولاسيما وقد أضيف إليه آل محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : وقضية كونه أفضلَ ـ أي : من إبراهيم وآله ـ أن تكون الصلاة المطلوبة أفضل من كل صلاة حصلت ، أو تحصل لغيره صلى الله عليه وسلم .

قال : وقد أُجيبَ عن ذلك بأجوبة ... ، فساق أجوبة متعددة ونحن نذكر جملة من الأجوبة التي ذكرها في (الفتح) وذكرها غيره من العلماء المتقدمين :

الجواب الأول : أن التشبيه المذكور إنما هو في أصل الصلاة لا في القَدْر والكيفية ، فهذا نظيرُ قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ الآية ، فهذا التشبيه هو في أصل الوحي لا في قدره وفضيلة الموحَى به ، ونظير قوله تعالى : ﴿ وأحسِن كما أحسَن الله إليك ﴾ فلاشك أن أحداً لا يَقدرُ أن يُحسنَ بقدر ما أحسن الله تعالى

إليه ، وإنما المراد به أصل الإحسان لا قدره ، ومن ذلك قول القائل : أحسنْ إلى ولدك كما أحسنتَ إلى فلان ، يُريد بذلك أصل الإحسان لا قدره ، والمعنى : صلِّ على سيدنا محمد صلاةً تليق بمقامه وكما له ومنزلته عندك ، كما صليتَ على إبراهيم صلاة لائقةً بمقامه عندك .

الجواب الثاني : أن التشبيه عائد إلى الآل فقط ، وتمَّ الكلام عند قوله « اللهم صل على محمد » ثم قال : « وعلى آل محمد كما صليت .. » إلى آخرها .

قال في (فتح الباري) : وتُعُقِّبَ ـ أي تعقبَ هذا الجوابَ ابنُ دقيق العيد ـ بأن غير الأنبياء لا يمكن أن يساووا الأنبياء ، فكيف تُطلب لهم صلاةٌ مثلُ الصلاةِ التي وقعت لإبراهيمَ ؛ والأنبياءُ من آله على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ؟ قال : ويمكن الجواب عن ذلك بأن المطلوب الثوابُ الحاصل لهم لا جميع الصفات التي كانت سبباً للثواب . ا هـ .

ويَقْرُب من هذا جوابُ العلامة البُلقيني : بأن التشبيه ليس هو في القدر ولا في الرتبة ، حتى يقال : إن غير الأنبياء لا يساوون الأنبياء ، بل التشبيه في أصل الصلاة ، وذلك قدر مشترك بين الأنبياء والآل .

الجواب الثالث : أن التشبيه بالنظر إلى ما يحصُل لسيدنا محمد وآل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من صلاة كلِّ فردٍ فردٍ ، فيحصل من مجموع صلاة المصلين من أول التعليم إلى آخر الزمان أضعاف ما كان لآل إبراهيم مما لا يحصيه إلا الله عز وجل .

قال في (الفتح) : وعبَّر ابن العربي عن هذا بقوله : المراد دوام ذلك واستمراره . اهـ .

قال في (القول البديع) : وقد قال شيخ الإسلام تقي الدين السُّبْكي رحمه الله تعالى : إذا صَلَّى عبدٌ على نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الكيفية ، فقد سأل اللهَ تعالى أن يصلِّيَ على سيدنا محمد كما صلى على سيدنا إبراهيم وآله ، ثم إذا قالها عبدٌ آخرُ فقد طلب صلاةً أخرى غيرَ التي طلبها الداعي الأول ، ضرورةَ أن المطلوبَيْن - وإنْ تشابها - مفترقان بافتراق الطالب ، وأن الدعوتَيْن - أي : بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم - مستجابتان ، إذِ الصلاةُ على النبي صلى الله عليه وسلم دعوةٌ مستجابة ، فلابد أن يكون ماطلبه هذا غيرَ ماطلبه ذاك ، لئلا يلزمَ تحصيلُ حاصلٍ ، كما قال ولده التاج السبكي : إن الله تعالى يصلِّي على النبي صلى الله عليه وسلم صلاةً مماثلة لصلاته لإبراهيم عليه السلام وآله كلما دعا عبد ، فلا تنحصر الصلوات عليه من ربه التي كلٌّ واحدة منها بقدر ماحصل لإبراهيم وآله ، إذْ لا ينحصر عددُ مَن صلَّى عليه بهذه الصلاة صلى الله عليه وسلم . اهـ .

الجواب الرابع : أن التشبيه إنما هو للمجموع بالمجموع ، فإن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا طُلِب للنبي صلى الله عليه وسلم ولآله من الصلاة مثلُ ما لإبراهيم وآله - وفي آل إبراهيم الأنبياء - فقد حصل لآل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك - أي : من الصلوات المطلوبة - ما يليق بهم ، فإنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء ، وتبقى الزيادة الكبيرة الكثيرة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم عليه السلام - تبقى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيحصُل له بذلك مِن المزية مالم يحصل لغيره صلى الله عليه وسلم .

وقد نَقَل هذا القولَ الحافظُ ابنُ حجر في (الفتح) ، وبُسط مفصَّلاً في (القول البديع) ، وكذا في (جلاء الأفهام) ثم قال بعد تقريره : وهذا ـ القول ـ أحسنُ مِن كل ماتقدَّمه .

ونقل الحافظ في (الفتح) عن الإمام النووي رحمه الله تعالى : أن أحسن الأجوبة هو مانُسب إلى الشافعي ، أي : من أن التشبيه متعلق بآل محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وكذا الجواب بأن التشبيه لأصل الصلاة بأصل الصلاة ، أو للمجموع بالمجموع . اهـ .

ثم نقل الحافظ في (الفتح) عن ابن القيم استحسانه تشبيهَ المجموعِ بالمجموع ، وقولَه ـ أي : قولَ ابن القيم ، وأقره عليه ـ وأحسنُ منه أن يقال : ..... وذكر كلامه باختصار .

ونحن نذكره بنصه قال : سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم هو من آل إبراهيم ، بل هو خير آل إبراهيم ، كما رَوَى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ على العالمين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : محمد صلى الله عليه وسلم هو من آل إبراهيم .

قال : وهذا نصٌّ إذا دخل غيرُه صلى الله عليه وسلم من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم في آله ، ـ أي : آل إبراهيم ـ فدخولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أولى ، فيكون قولنا : « كما صليت على آل إبراهيم » متناولاً للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم .

ثم قد أمرنا الله تعالى أن نصليَ عليه وعلى آله خصوصاً ، بقَدْر ماصلينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموماً ، وهو صلى الله عليه وسلم فيهم ، ويحصل

لآله من ذلك ما يليق بهم ، ويبقى الباقي كلُّه له صلى الله عليه وسلم . أي : كما يليق به .

قال : ويظهر حينئذٍ فائدةُ التشبيه وجَرْيُه على أصله وأن المطلوب له من الصلاة بهذا اللفظ أعظمُ من المطلوب له بغير هذا اللفظ ، فإنه إذا كان المطلوب بالدعاء إنما هو مثل المشبَّه به وله أوفر نصيب منه ، صار له من المشبهِ المطلوبِ أكثرُ مما لإبراهيم وغيره ، وانضاف إلى ذلك مما له من المشَبَّه به من الحصة التي لم تحصل لغيره . أي : على وجه يليق بمقامه المحمدي الخاصِّ به صلى الله عليه وسلم .

قال : فظهر بهذا من فضله صلى الله عليه وسلم وشرفه على إبراهيم وعلى كلٍّ من آل إبراهيم وفيهم النبيون ـ ماهو اللائق به ، وصارت هذه الصلاة دالةً على هذا التفصيل ، وتابعة له ، وهي من موجباته ومقتضياته ، فصلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلَّم تسليماً كثيراً ، وجزاه الله عنا أفضل ماجزى نبياً عن أمته . اهـ . آمين[1] .

الجواب الخامس : وبه يندفع الإشكال الوارد على التشبيه من أصله :

وذلك أن المشبَّه به قد يكون أرفعَ من المشبه ، وأن ذلك ليس مطرداً ، بل قد يكون التشبيه بمثل المشبَّه أو بدونه ، قال الحافظ في (الفتح) ـ ونقله السخاوي أيضاً ـ : وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ .

قال : وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى ، ولكنْ لما كان المراد من

---

(١) انظر (فتح الباري) و (جلاء الأفهام) .

المشبه به أن يكون شيئاً ظاهراً واضحاً للسامع سُنَ تشبيه النور بالمشكاة ، وكذا هنا ، لما كان تعظيم إبراهيم عليه السلام وآل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهوراً واضحاً عند جميع الطوائف حَسُنَ أن يطلب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآلِ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - بالصلاة عليهم مثل ما حصل لإبراهيم وآل إبراهيم عليه السلام .

قال في (الفتح) : ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله : « في العالمين » أي : كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين . اهـ .

البحث الثاني : في الكلام على وجه تخصيص الخليل إبراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام بالتشبيه ، دون غيره من الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم .

وقد أجاب العلماء عن ذلك عدة أجوبة نذكر بعضها ، وكلُّها محتمِلةٌ المراد ، إذ لا تنافي بينها :

الجواب الأول : أن تخصيص ذكر الخليل في الصلاة الإبراهيمية سببه المكافأة له على إرساله السلام على هذه الأمة المحمدية ، مع سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وحسَّنه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقيتُ إبراهيم عليه السلام ليلةَ أُسريَ بي فقال : يا محمد أقرئْ أمتَك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيِّبةُ التربة عذبةُ الماء ، وأنها قِيعان ، وأن غِراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » . زاد الطبراني في روايته : « ولاحول ولاقوة إلا بالله » .

فمكافأةً للخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ على هذه التحية وحُسنِ الوصية ـ خُصَّ بالذكر والتشبيه .

الجواب الثاني : أنه خُص بالذِّكر لأنه سمانا المسلمين ، كما أخبرنا الله تعالى عنه بقوله : ﴿ هو سَمَّاكم المسلمين من قَبْلُ ﴾ الآية . أي بقوله : ﴿ ربنا واجعلْنا مسلمَيْن لك ومِن ذريتنا أمةً مسلمةً لك ﴾ الآية .

ولاشك أن العرب من ذريته ومن ذرية ابنه إسماعيل عليهما السلام ، فخص الخليل بالتشبيه مكافأةً له على ذلك ، أو تكرمةً لمكانة أبوَّته عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ ملةَ أبيكم إبراهيم ﴾ .

الجواب الثالث : أن تخصيص سيدنا إبراهيم بالذكر والتشبيه ، لأن الله تعالى اتَّخذه خليلاً ، قال تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيمَ خليلاً ﴾ ، وقد اتخذ الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خليلاً وحبيباً ، فهو صلى الله عليه وسلم خليلُ الله تعالى الأكرم ، وحبيبه الأعظم ، فإن مقام الخُلة التي أُعطيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فوق مقام الخُلة التي أعطيها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

روى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، فمنزلي ومنزل إبراهيم في الجنة يوم القيامة تُجاهَيْن ، والعباس بيننا مؤمن بين خليلَيْن » .

وفي حديث المعراج الذي رواه البيهقي وأبو يعلى والبزار وغيرهم : « إن الله تعالى قال له صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، فقال : لبيك يارب ، قال : سَلْ ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً » وفي رواية أبي يعلى :

« إن الله تعالى قال له : إني اتخذتك خليلاً » ، وفي رواية البيهقي : « فقال الله تعالى له : قد اتّخذتك حبيباً[1] » .

وروى مسلم عن أبي هريرة وحذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة حين يأتي أهل الموقف إلى الخليل إبراهيم عليه السلام فيسألونه الشفاعة ، فيقول إبراهيم عليه السلام : « لستُ بصاحب ذلك ، إنما كنتُ خليلاً من وراءَ وراءَ » بفتح الهمزة فيهما بلا تنوين ، وَيَجوز فيها البناءُ على الضم ، للقطع عن الإضافة[2] .

قال القسطلاني : وكَرَّر « وراء » إشارة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه حصلتْ له الرؤية ـ لله تعالى ـ والسماع ـ لكلامه تعالى ـ بلا واسطة . اهـ .

فمقام الخُلَّة المحمدية أعلى وأكمل ، كما أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه الله تعالى المقام أنه حبيب الله تعالى ، وهذا فوق مقام الخلة ، كما دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه الترمذي والدارمي وأحمد وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس ناسٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فتسمَّع حديثهم :

فإذا بعضهم يقول : عجباً ! إن الله تعالى اتخذ من خلقه خليلاً ، فإبراهيم خليلُه .

وقال آخر : ماذا بأعجبَ مِن ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

---

(١) انظر (شرح المواهب ٦ : ١٠٣)

(٢) انظر (المواهب وشرحه ٨ : ٣٧٤) .

وقال آخر : فعيسى كلمةُ الله وروحه .

وقال آخر : وآدم اصطفاه الله .

فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم ، وقال :

« سمعت كلامكم وعَجَبكم : إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجيُّه وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك ، ألا وأنا حبيبُ الله ولا فخر ، وأنا حاملُ لواءِ الحمد يوم القيامة : تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أول شافعٍ وأول مشفَّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يُحرِّك بحَلَق الجنة ولا فخر ، فيفتح الله فيُدْخِلُنيها ومعي فقراءُ المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر[1] » صلى الله عليه وسلم .

الجواب الرابع : أن الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام خُصَّ بالذِّكْر في التشبيه ، لأجل أن يذكر بالجميل على صنعه الجميل مع هذه الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام ، حيث دعا لها بقوله كما أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ ويُزَكِّيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، ولذلك كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا دعوةُ إبراهيم و .. » .

فحقيق بهذه الأمة المحمدية أن تَذْكرَ الخليلَ بالجميل ؟ !

وكيف لا تذكره بالجميل ؟! وقد دعا كما أخبرنا تعالى بقوله : ﴿ واجعلْ

---

(١) انظر (سنن الدارمي ١ : ٢٦) .

لي لسانَ صِدْقٍ في الآخِرين ﴾ أي : واجعل لي ثناءً حسناً وذكراً جميلاً في الآخرين من الأمم ، وهي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو المرادُ بالآخِرين : كلُّ أمة جاءت بعده ، فتدخل هذه الأمة المحمدية في ذلك دخولاً أوَّلياً لأنها آخر الأمم قولاً واحداً ولانه دعا لها كما تقدم في الآية الكريمة .

قال تعالى : ﴿ إن أولى الناسِ بإبراهيمَ لَلَّذين اتَّبَعُوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين ﴾ .

فهذا النبي في الآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و ﴿ الذين آمنوا ﴾ هم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم إن دعاء الخليل عليه السلام بقوله : ﴿ واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخرين ﴾ هو يستلزم طلبَ التوفيق من الله تعالى للأعمال والأقوال الطيبة المشكورة عند الله تعالى ، وفيها الخير والسعادة لعباد الله تعالى ، فكان المراد بلسان الصدق هنا : الثناء الحسن ، وهو المعبِّر عن حقيقة المحاسن التي اشتمل عليها المُثْنَى عليه .

فإن اللسان يراد به ثلاثةُ معانٍ :

١ ـ معنى الثناء ، كما تقدم .

٢ ـ ويراد به : اللغةُ ، قال تعالى : ﴿ وماأرسلنا مِن رسول إلا بلسان قومه لِيُبيِّن لهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض ، واختلافُ ألسنتكِم وألوانِكم ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ لسانُ الذي يُلحدونَ إليه أعجميٌّ ، وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين ﴾ .

٣ ـ ويراد به أيضاً : الجارحةُ اللسانيةُ نفسها ، قال تعالى : ﴿ لا تحرِّكْ به لسانَك لِتَعْجلَ بِه ﴾ .

فسأل الخليل ربه تعالى لسان صدق أي : ثناءً حسناً معبِّراً عن أعمال مبرورة ، وأقوال مشكورة ، وقربات وطاعات قد تَحقَّق بها ، وذلك ليُقْتَدَى به ويكون أُسْوةً حسنة لمن بعده .

وبلسان الصدق يُحترز عن لسان الكذب ، وهو الثناء بما لا حقيقةَ فعلية له ، فإنه مذموم ، قال تعالى : ﴿ ويُحبُّون أن يُحمدوا بما لم يَفعلوا ، فلا تَحسبنَّهمْ بمفازةٍ من العذاب ﴾ الآية .

ولا شك أن أعظم من أُوتي لسانَ الصدق والثناءَ بالحق ، ورفعة الذكر وعلو المقام والقدر ، هو سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أثنى الله تعالى عليه في جميع العوالم والأمم ، ورَفَعَ ذِكْره فوق كل مذكور ، وشكره فوق كل مشكور ، قال تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذِكْرَك ﴾ .

الجواب الخامس : أن الخليل عليه السلام خُصَّ بالذِّكْر في التشبيه ، لأنه أفضلُ الأنبياء بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه عليه السلام أبٌ رحيم ، لأن إبراهيم كلمة سريانية ، معناه بالعربية : أب رحيم ، وهو خليل الرحمن كما أخبر الله تعالى عنه ، وهو شيخ الأنبياء .

وقد سماه الله تعالى إماماً ، قال تعالى : ﴿ وإذِ ابْتَلَى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتَمَّهنَّ ، قال : إني جاعلك للناس إماماً ﴾ .

وسماه أمةً ، قال تعالى : ﴿ إن إبراهيمَ كان أمةً ﴾ والأمةُ هنا معناه : القدوة الكاملة والمعلِّم للخير .

وسماه قانتاً : ﴿ قانتاً لله حنيفاً ﴾ والقانت : هو المطيع لأوامر الله تعالى ، الملازم لطاعته ، والحنيف : هو المقبلُ على الله تعالى ، والمعرِضُ والمائلُ عن غيره .

ولاشك أن إمامَ الأئمة ، والأمةَ الذي هو فوق كل أمة ـ هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي صلتْ وراءه جميع الأئمة ـ أي : الأنبياء والرسل ـ ليلةَ الإسراء في بيت المقدس .

وكما أنه صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة في الدنيا هو إمامهم في الآخرة ، كما أعلن ذلك متحدِّثاً بنعمة ربه عليه ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يومُ القيامة كنتُ أنا إمامَ النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، غيرَ فخر » . رواه الترمذي وغيره .

وهكذا سيدنا إبراهيم عليه السلام هو أولُ مَن قَرَى الضيفَ ، وأول من اختتن ، وأول من رأى الشيبَ ، فقال : يارب ماهذا ؟ قال : وقار . فقال : رب زدني وقاراً .

وقد شهد الله تعالى له بأنه وفَّى بأوامر الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفَّى ﴾ .

وقد فاز بامتحان الله تعالى له للخُلَّة ، فكان عليه السلام : قلبُه خالياً للرحمن ، وولدُه للقربان ، وبَدنُهُ للنيران ، وماله للضيفان ، وقد فتح الله به بابَ مناظرةِ المبطِلين وإفحامهم بالحجج والبراهين ، كما أخبرنا الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وتلك حُجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه ، نرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ أي : في العلم والحجة .

وهو عليه السلام بنى البيتَ المعظم : الكعبةَ المشرفة ، وأمره الله تعالى أن يؤذِّن بحجه .

وهكذا مناقبه عليه السلام أكثرُ من أن تُحصر ، وأشهرُ من أن تذكر .

فحُقَّ لهذا الخليل النبيل ، والسيد الجليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام : أن يذكر في التشبيه ضمن الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

الوجه السادس : في الكلام على معنى « وبارِكْ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد » صلى الله عليه وسلم .

البركة اشتقاقها يدلُّ على أمرين :

الأول : الثبوت والدوام .

الثاني : الزيادة والنَّماء .

قال في (الصحاح) : كل شيء ثَبَت وأقام فقد برك .

والبِرْكة ـ بكسر الباء ـ كالحوض ، ويقال : سميت بذلك لإقامة الماء فيها . اهـ .

ويقال : هذا الشيء فيه بَرَكة : نماء وزيادة ، والتبريك : الدعاء بذلك .

ويقال : باركه الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ أنْ بُورِكَ مَن في النار ومَن حولها ﴾ .

ويقال : بارك الله تعالى فيه ، قال تعالى : ﴿ التي باركنا فيها ﴾ .

ويقال : بارك عليه ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ .

ويقال : بارك الله تعالى له ، وفي الحديث : « اللهم اهدني فيمن

هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولَّني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت » .

والمبارك : الذي قد بارك الله تعالى فيه ، قال تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام : ﴿ وجَعَلني مباركاً أينما كنتُ ﴾ .

ومعنى : ﴿ تباركَ الله ربُّ العالمين ﴾ : تعاظَمَ في كثرة صفاته وكمالاته وبقائها ، وتعاظَمَ في عظيم نعمه وخيراته وإفاضاته أنواعَ البرِّ والإحسان على مخلوقاته ودوامها ، فهذا الوصف يدل على كثرة كمالات الذات ، وكثرة صفات الأفعال الفيَّاضة بالخيرات على المخلوقات .

فالبركة كلها من الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَة ـ وقد نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ـ قال : « حيَّ على الطَّهور المبارك ، والبركةُ من الله تعالى » كما في البخاري .

والبركة : هي ثبوتُ الخير الإلهي في الشيء المبارك على وجه الكثرة ، قال تعالى : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ أي : موضع الخيرات الإلهية . وقال تعالى في ليلة القدر : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ لكثرة الخير الإلهي الذي يتدفَّق فيها على العباد . وقال تعالى : ﴿ ونزَّلْنا من السماء ماءً مباركاً ﴾ أي : كثيراً خيرُه ونفعُه ، ثم فصّل ذلك بقوله تعالى : ﴿ فأنبتْنا به جناتٍ وحبَّ الحصيد ، والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيدٌ ، رزقاً للعباد ، وأَحْيَيْنا به بلدةً مَيْتاً ﴾ الآية .

وقال تعالى في البركة التي أفاضها سبحانه على الأرض : ﴿ وجَعَلَ فيها رواسيَ مِن فوقها وباركَ فيها ﴾ الآية ، وبهذه البركة صارت الحبةُ

الواحدةُ توضع في بطن الأرض فتُنْبِتُ أضعافَها وأمثالَها ، والنواة الواحدة تُغْرس فتعطي من الثمرات ماشاء الله تعالى من الأعداد ، ولولا ذلك لأعطتْ الحبةُ حبةً ، والنواة مثلها ، فتبارك الله رب العالمين .

وإن أعظم مبارَكٍ بارك الله تعالى فيه وبارك عليه وجعله مباركاً أينما كان - هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بارك الله تعالى في ذاته وذرّاته ، وفي قلبه الشريف ، وسمعه وبصره ، وفي عقله وجميع حواسِّه ومداركه الشريفة ، كما بارك الله تعالى عليه وله في جميع ماأعطاه من الهدى والعلم والعمل ، والخير العام الذي شمل جميع العوالم ، فلا بركةَ أعمُّ منه ، ولا خيرَ أعظم منه صلى الله عليه وسلم .

أما ذاته وذراته الشريفة : فإنها فيَّاضة بالبركات والخيرات ، فما مستْ يده الشريفة طعاماً ولا شراباً إلا سَرَتْ فيه البركة الإلهية ، ولا بصق في طعام أو ماء إلا وبُورك فيه ، ولا مَسَحَ رأس إنسان أو وجهه أو موضعاً من جسم إلا حلَّتْ فيه البركة والشفاء والنضارة ، ولا مسَّ جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم ثوباً إلا حلَّتْ فيه البركة .

ولقد كان أصحابه صلى الله عليه وسلم يتزاحمون على ماءِ وَضوئه وعلى نخامته وبصاقه والتبرُّك بثيابه صلى الله عليه وسلم ، وقد أوردنا الأدلة الثابتة على ذلك في آخر كتابنا (حول شمائله الحميدة صلى الله عليه وسلم) فإنك تجد فيه ما يروي الغليل ويشفي العليل .

ولقد بارك الله تعالى له في سمعه وبصره صلى الله عليه وسلم فكان يقول : « إني أرى مالاتَرَوْن ، وأسمعُ مالاتسمعون » .

كما بارك سبحانه وتعالى له في خلقه ، فوسِع الناسَ كلَّهم بخلقه العظيم .

كما بارك له سبحانه في قلبه الشريف فاتَّسَع لنزول القرآن العظيم بنصّه ومعانيه ، ومفاهيمه وإرشاداته ، وروحه وأسراره وأنواره ، لم يتَّسعْ أيُّ قلب ذلك الاتساعَ ، وإلى ذلك أشار سبحانه في قوله : ﴿ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبك ﴾ أي : على قلبك خاصة من بين سائر القلوب كلها .

كما بارك الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في قوته الجسمية بحيث لا يستطيع أحد أن يقاومه ، وكان يصرع أقوى مصارع صلى الله عليه وسلم .

وينبغي أن ترجع أيها القارئ في هذا كله إلى كتابنا (الشمائل المحمدية) صلى الله عليه وسلم تجد التفصيل مع الدليل .

كما بارك الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في هديه وعلمه ، فجاء بالهدى العام الذي يعمُّ وينفع جميع الأنام ، قال تعالى : ﴿ إنما أنتَ منذرٌ ولكلّ قومٍ هادٍ ﴾ والمعنى هو كما روى ابن مَرْدُوْيَه عن ابن عباس ، وكما روى ابن جرير عن عكرمة وأبي الضحى قالوا : إن المنذر والهادي هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وَوَجْه ذلك بأن ﴿ هاد ﴾ معطوف على ﴿ منذر ﴾ ، و ﴿ لكل قوم ﴾ متعلق به[1] .

فهو صلى الله عليه وسلم الهادي العامُّ لجميع الأقوام ، قد وَسِع هديه

---

(١) انظر (تفسير الآلوسي) وغيره .

الذي جاء به جميعَ الأمم ، ذلك لأن الله تعالى جمع له جميعَ أنواع الهَدْي .

قال تعالى بعد أن ذكر الأنبياء وهَدْيَهم ـ قال سبحانه : ﴿ أولئك الذين هَدَى اللهُ ، فبِهداهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ، ولم يقل سبحانه : فبهم اقتده ، فإنه لم يؤمر باتِّباع نبيٍ قبله ، وإنما قال له : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ ، ولا شك أن هديهم من الله تعالى ، فالله تعالى جمع له الهَدْي كله ، وعلَّمه ذلك كله ، فهديُه صلى الله عليه وسلم صالح ومُصْلح لكل قوم ومُسْعِد لكل أمة .

فتبارك الله رب العالمين ، الذي بارك في هَدْي إمام النبيين صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان غيثُ الماء النازل من السماء بارك الله تعالى فيه بركةً تحيا به الأرض ، وتُنبتُ الكلأ والعشب والزروع والأشجار وما فيها من حبوب وثمار وخضار ونضار ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ونَزَّلْنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحصيدِ ﴾ ـ إذا كان الأمر كذلك مشهوداً لا ريب فيه ، فإن البركة الإلهية في الهَدْي المحمديِّ هي أشمل وأعمُّ ، وأثرها في أرض القلوب أعظمُ وأهمُّ .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن مَثَل مابعثني الله تعالى به من الهُدَى والعلم ، كَمَثَل غيثٍ أصاب أرضاً ، فكانتْ منها طائفة طيبة قَبِلتِ الماءَ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ فنفع الله تعالى بها الناسَ ، فشربوا منها وسَقَوْا وزرعوا ، وأصاب طائفةٌ منها أخرى إنما هي قيعانٌ لاتُمْسِكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً ؛

فذلك مَثَل مَن فَقُه في دينِ الله تعالى ونَفَعه مابعثني الله تعالى به فعلِم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يَقْبل هدى الله الذي أرسلت به » .

فغيثُ ماءِ السماء المبارك تحيا به أرضُ الأجسام ومنابتُ الزرع والشجر ، ولكنَّ الغيثَ والغوثَ كلَّ الغيثِ في الهَدْي المحمديِّ المبارك الذي أغاث الله تعالى به أرض القلوب فأحياها ، وأنبت فيها شجرة الإيمان المنبثقة عن لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشعَّبتْ شُعَب الإيمان ، وأثمرتْ ثمراتَ الأعمال الصالحة والأقوالَ الطيِّبة .

فهذه ثلاثة أمور هامة : أصلُ الشجرة الإيمانية ، وشعوبُها ، وثمراتُها ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك كلِّه بالمثال الذي ضربه للناس لعلهم يتذكرون في قوله تعالى : ﴿ ألَمْ تَرَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء تؤتي أكلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها ، ويضربُ الله الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكَّرون ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبةً ، فأَفْضَلُها قولُ لاإله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق . قال : والحياءُ شعبةٌ من الإيمان » كما جاء في صحيح مسلم وغيره .

وإنَّ إفاضاتِ البركاتِ بالخيراتِ والسعاداتِ من سيد السادات على أنواع المخلوقات لا يُحيط بها إلاّ ربُّ الأرض والسموات .

الوجه السابع : في الكلام على قوله : « في العالمين » :

قال الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى : أشار بقوله « في العالمين » إلى اشتهار الصلاة والبركة على إبراهيم في العالمين ، وانتشار شرفه وتعظيمه ، وأن المطلوب لنبينا عليه الصلاة والسلام صلاةً تشبه تلك الصلاةَ وبركةً تُشبه تلك البركةَ في انتشارها في الخلق وشهرتها . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتَركْنا عليه في الآخرين سلامٌ على إبراهيم ﴾ . اهـ .

فالله سبحانه وتعالى قد أكرم خليله عليه السلام ، وشَهَرَ صيته ، ونشر مدحه في العالمين ، ولكنه سبحانه رفع ذِكْر حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل مذكور ، بثناء وشكور في جميع العالمين الأولين والآخرين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « وأنا أكرمُ الأولين والآخرين على ربي ولا فخر » .

وشهر صيت حبيبه ، ونشر له أعلام المدح والثناء ، وأعطاه راية المجد ولواء الحمد ، الذي يدخلُ تحته جميعُ الأنبياء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « آدمُ فَمَنْ دونه تحت لوائي ولا فخر » .

جعلنا الله تعالى مِن أتباعه ، وأدخلنا تحت لوائه ، وجعلنا من رفقائه صلى الله عليه وسلم .

والعالمون هو اسم ملحق بالجمع ، مفردُه : عالَم ، وهو ما يُعلَم به ، كالخاتَم : وهو ما يختم به ، والطابع : وهو ما يُطبع به ، وسُمي العالَم بهذا الاسم لأنه علامةٌ على خالقه الذي خَلَقه ، فهو عالم أي : يُعلم به خالقُه ومدبِّره .

والعالمون : يشمل أصنافَ المخلوقاتِ كلها : عالَم المُلْك ، وعالَم الملكوت ، وعالَم الجبروت ، ويدخل تحته عالَم الملائكة ، وعالم الأنس ، وعالم الجن ، ويدخل تحته جميع الأرواح ، وعالم الأشباح ، وعالَم الخَلْق ، وعالم الأمر ، والعوالم لا يحصي عددَها إلا الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وما يَعلمُ جنودَ ربك إلا هو ﴾ والبحث في بيان بعض أنواع العوالَم ، سيأتي في غير هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقد روى بعض المحققين من العارفين : أن العوالَم العرشية ـ أي

المنوطة بعالم العرش الكريم ـ لا يعلمها إلا الله تعالى ، وأن هناك مائةَ ألفِ قنديل معلقة بالعرش ، وأن السموات والأرض والجنة والنار هي قنديل واحد من تلك القناديل ، ولا يَعلمُ ما في بقية القناديل من العوالم إلا ربُّ العالمين سبحانه وتعالى . اهـ . فهذه من مضامين عالَم العرش ، ولا يعلم بقيةَ العوالم إلا ربُّ العالمين سبحانه .

قال عبد الله : ولا ينبغي أن يرتاب العاقلُ في وجود تلك القناديل المنوطة بالعرش ، فقد قال صلى الله عليه وسلم ـ كما رواه أبو داود والإمام أحمد في مسنده وغيرهما ـ في حديث شهداء أحد وفيه : « إن أرواحهم تأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرش » الحديث .

فالعالَم علامة دالَّة على خالقه يُعلَم به قدرةُ الله تعالى العظيمةُ ، وعلمُه الواسع لكل شيء ، وحكمتُه التي عَلَتْ كلَّ شيء ، وقال تعالى : ﴿ الله الذي خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ، ومن الأرضِ مثلَهنَّ ، يتنزَّلُ الأمر بينهنَّ لتعلَموا أن الله على كل شيءٍ قديرٌ ، وأن الله قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلْماً ﴾ .

فقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه سبحانه خلق العالَم السماويَّ والأرضَ وما بينهما ، ليُعلم بقدرتِه على كل شيء ، وعلمِه المحيط بكل شيء ، فالعوالم مرايا ومجالي تنجلي فيها آثارُ صفاتِ الله تعالى ، وتُرى فيها بدائعُ صُنْعه وخلقه ، قال تعالى : ﴿ صُنْعَ اللهِ الذي أتقن كلَّ شيء ﴾ وقال تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ أي : هذا خَلْقُ الله تعالى تشاهدونه ، فكيف لاتشهدون بحقيَّةِ خالقه فتقولون : لاإله إلا الله ، فإنها أحقُّ الشهادات وأصدقُها ، لأن شواهدها لاتعدُّ ، ومشاهدها لاتُحدُّ . والبحثُ في ذلك طويل الذيل ، وسوف يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

الوجه الثامن : اختتام الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بـ « الحميد المجيد » :

وهذا البحث يشتمل :

أولاً : على معنى : « الحميد والمجيد » ، والفرق بينهما .

وثانياً : على مناسبة اختتام صيغة الصلاة الإبراهيمية بهما .

أما معنى « الحميد المجيد » : فقد قال الحافظ السخاوي : الحميد : فعيل من الحَمْد ، بمعنى المحمود وأبلغُ منه . ـ يعني أن الحميد أبلغُ من المحمود ـ وهو : مَنْ حصل له من صفات الحمد أكملُها ، وقيل : بمعنى الحامد ، وهو أن يَحْمَد أفعالَ عباده ، والمجيد : هو : من المجد ، وهو صفة الإكرام . اهـ .

فالحميد : بمعنى المفعول ، هو أبلغ من المحمود ، لأن الحميد هو الذي اجتمع فيه من صفاتِ الكمال وأسبابِ الحمد له ما يقتضي أن يكون محموداً ، وإن لم يحمدْه غيره ، فهو حميد في نفسه ، وحُقَّ له أن يَحمَده غيرُه ، وأما المحمود فهو الذي تعلَّق بهِ حَمْد الحامدين له .

فالله تعالى هو الحميد من قَبل أن يخلق خلقاً يحمدونه ، أي : المحمودُ غايةَ الحمد ، على وجه الاستمرار الدائم أزلاً وأبداً ، لأنه متَّصفٌ بجميع الكمالات والمحامد السنية ، ففيه جميعُ أسبابِ الحمد التي تقتضي أن يُحمد ، فهو أهلٌ أن يُحمد ، وحُقَّ له أن يُحمد على كماله في ذاته وصفاته ، وعلى نواله وإحسانه الذي عمَّ جميعَ مخلوقاتِه جل وعلا ، وقد بيَّن ذلك لعباده في قوله سبحانه : ﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾ .

ومعنى ذلك : أنه سبحانه يُحمد ، لأنه هو الله تعالى المتَّصفُ بجميع الكمالات المطلقة ، ويُحمد لأنه هو رب العالمين خالقهم ورازقهم ومربِّيهم ، والرحمن الرحيم بهم ، والمالكُ والملِكُ ليوم الدين ، الذي فيه يُجازيهم ويُحاسبهم ﴿ ليجزيَ الذين أساءوا بما عَمِلوا ، ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

ويُحتمل أن يكون معنى اسم الحميد سبحانه : الحامد ، فإنه لم يزل ولا يزال يحمد نفسه ، ويثني على نفسه ، قال تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « سبحانك لاأُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وحُقَّ له ذلك لأن كماله ذاتيٌّ له من ذاته لم يكتسبِ الكمالَ من غيره ، وأما غيرُ الله تعالى فلا يجوز أن يُثني على نفسه لأن كماله ليس من ذاته ، بل يجب عليه أن يثني على الذي أسبغ عليه الكمال ، وهو الله تبارك وتعالى .

وهو سبحانه الحامد أيضاً لعباده إذا أحسنوا وأصلحوا وأخلصوا ، فإنه سبحانه يَحْمَدهم ويُثني عليهم ويشكرهم على ذلك ، قال تعالى : ﴿ ما يَفْعَلِ اللهُ بعذابكم إنْ شكرتُم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليماً ﴾ ويقول سبحانه لأهل الجنة : ﴿ إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سَعْيُكم مشكوراً ﴾ وقال تعالى في ثنائه على عباده المحسنين : ﴿ الذين يُنفقون في السَّراء والضَّراء ، والكاظمين الغيظَ ، والعافين عن الناس ، والله يُحبُّ المحسنين ﴾ .

وأما المجيد :فهو مشتق من المجد الدالِّ على صفات العظمة والجلال ، والسعة والشرف ، فهو على وزن فعيل بمعنى الفاعل . قال الله تعالى :

﴿ والقُرآنِ المجيدِ ﴾ أي : لـه المجدُ والشرفُ والفضل على سائر الكلام ، ويجوز أن يكون على معنى المفعول ، أي : الممجَّد في الملأ الأعلى ، والملأ الأدنى ، كما أنه تعالى المسبَّح والمقدَّس ، وفي الحديث : « فإذا قال العبدُ : مالكِ يومِ الدين ، قال الله تعالى : مجدَّني عبدي » فهو سبحانه المجيد أي : الممجَّد .

وقد جاء وصفه سبحانه وتعالى بالحميد والمجيد مقترنيْنِ في كثير من الآيات والأحاديث :

قال الله تعالى : ﴿ رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾ .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عزَّ وجلَّ : قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي ؛ ولعبدي ماسأل . فإذا قال : ـ أي العبد ـ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله تعالى : حَمِدني عبدي . وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله : مجَّدني عبدي » الحديث .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : « اللهم ربَّنا لك الحمد ملءَ السمواتِ وملءَ الأرض ، وملءَ ماشئتَ من شيءٍ بعدُ ، أهلُ الثناء والمجد ، أحقُّ ماقال العبد ـ وكلُّنا لك عبد ـ اللهم لامانعَ لما أعطيتَ ، ولا مُعطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ » .

وأما وجه اختتام الصيغة الإبراهيمية بهذين الاسمين الكريمين : « الحميد المجيد » :

فهو أن صلاة الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم تشتمل على ثناء الله تعالى ، وتكريمه صلى الله عليه وسلم والتنويه به ، ورَفع ذكره صلى الله عليه وسلم ، وزيادة حبِّه وتقريبه ، فهي مشتملة على الحمد والمجد ، فإن المصلِّي عليه صلى الله عليه وسلم هو يطلبُ من الله تعالى أن يَزيدَ من حمده ومجده ، فإن صلاته سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم فيها نوعُ حمدٍ له صلى الله عليه وسلم وتمجيد .

فذِكْر هذين الاسمين « الحميدِ المجيدِ » آخرَ الدعاء بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : مناسبٌ تماماً وذلك لأن من آداب الدعاء ـ كما قال ابن حجر وغيره ـ أن يُختَم بما يناسبه من أسمائه تعالى ، لما فيها من التوسل بما يُوجبُ تعجيلَ الإجابة ، والتفاؤل بحصول المطلوب .

قال الله تعالى إخباراً عن الخليل وابنه إسماعيل في دعائهما : ﴿ربَّنا واجعلنا مسلميْن لك ، ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك ، وأَرِنا مناسكَنَا ، وتُبْ علينا ، إنك أنت التوابُ الرحيم ﴾ فختَم الدعاءَ بما يُناسبه .

وقال تعالى مخبراً عن سليمان عليه السلام في دعائه : ﴿ ربِّ هبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي ، إنك أنت الوهَّاب ﴾ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ربِّ اغْفِرْ لي وتُبْ عليَّ ؛ إنك أنت التوابُ الغفور » مائةَ مرة في مجلسه . وعلَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصدِّيقَ الأكبرَ رضي الله عنه دعاءً يدعو به في صلاته : « اللهم

إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت ، فاغْفِر لي مغفرةً من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

فلما كان المطلوبُ للرسول صلى الله عليه وسلم حمدٌ ومجدٌ بصلاة الله عليه : خَتَم هذا الدعاءَ في الإبراهيمية باسمَي : « الحميدِ المجيد » .

وأيضاً فإنه لما طلب للرسول صلى الله عليه وسلم حمدٌ ومجدٌ بالصلاة عليه وذلك يستلزم الثناء على الله تعالى بالحمد والمجد ، لأنه سبحانه هو الذي أرسله صلى الله عليه وسلم - فكان هذا الدعاءُ متضمناً طَلَبَ الحمد والمجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومتضمِّناً الإخبارَ عن ثبوت الحمد والمجد لله تعالى ، وبهذا التوجيه يظهر وجه التذييل باسمَيْه : « الحميد والمجيد » على المفعولية ، وما سبق من التوجيه فعلى الفاعلية ، وهما متلازمان فتَبصَّر .

ويرحم الله القائل :

أيا قمراً في مطلع الحسن دائب ... ويا شمس حسن مالها قط حاجب
ويا سيداً منه العلا والمواهب ... إليك وإلا لاتشد الركائب
وعنك وإلا فالمحدث كاذب
إذا شرب العشاق من كل مشرب ... وهاموا غراماً في سليمى وزينب
فإن غرامي فيك يا أيها النبي ... وحبك يا خير النبيين مذهبي
وللناس فيما يعشقون مذاهب